الأستاذ فرنسيس جانْسون، الفيلسوف والمثقف المناضل

مصطفى ماضي
أستاذ محاضر قي قسم علم الاجتماع بجامعة الجزائر

ملخص
يعتبر فرانسيس جانسون من المفكرين والمناضلين مع الفرنسيين الذين قدموا مساندة قوية لنضال الشعب الجزائري لاسترجاع سيادته الوطنية. ولم يقتصر دعمه على التنديد بمواقف الحكومة الفرنسية وممارسات جيشها الاستعماري، بل شمل من خلال شبكة حملة الحقائب التي حملت اسمه. مما دعم مناضلي جبهة التحرير الوطني على نقل الوثائق والأموال داخل التراب الفرنسي والى الخارج. وللتعريف بأفكاره الفلسفية وبآرائه ومواقفه ونشاطاته في مجال دعم ثورة التحرير، يقترح هذا المقال تحليلا معمقا لأهم محطات نضاله ولإبراز أطروحاته.

الكلمات الدالة: الفلسفة، ثورة التحرير، حملة الحقائب.

Abstract

Francis Jeanson is one of the French thinkers and activists who provided strong support for the struggle of the Algerian people for the recovery of national sovereignty. His support was not limited to denouncing the positions of the French government and the practices of the colonial army, but included the bags-carrying network that bore his name. Thus, he was considered by several activists of the Liberation Front as loyal to transfer documents and money inside French territory and abroad. To highlight his philosophical ideas, views, positions, and activities in support of the liberation revolution, this article proposes an in depth analysis of the most important struggle stations of the man and to highlight his hypothesis.

Keywords: philosophy, liberation revolution, bags campaign.

Résumé

Francis Jeanson est l'un des penseurs et activistes français, qui ont fourni un appui solide à la lutte du peuple algérien pour le recouvrement de sa souveraineté nationale. Son soutien ne s’est pas limité à la dénonciation des positions du gouvernement français et des pratiques de l'armée coloniale mais a inclus, tout un réseau– portant son nom- de « porteurs de valises » qui a permis aux fidèles militants du FLN de transporter des documents et de l'argent à l'intérieur du territoire français et à l'étranger. Pour faire connaitre les idées philosophiques de ce penseur, ses points de vue, ses positions et ses actions en faveur de la Révolution algérienne, cet article propose une analyse profonde des principales étapes de sa lutte qui met en évidence ses thèses.

Mots clés: philosophie, révolution algérienne, porteurs de valises.

مقدمة

فرانسيس جانسون هو الكاتب والفيلسوف، مؤلف عشرات الكتب، صديق جان بول سارتر ومساعده الأول في دوريته المرجعية "الأزمنة المعاصرة""les temps modernes" ومسؤول السلسلة الأدبية والفلسفية «Ecrivains de toujours» في منشورات "لوساي" الفرنسية الشهيرة. وهو من المثقفين الفرنسيين القلائل الذين ترجموا أفكارهم المناصرة لقضية الشعب الجزائري في مساندة ملموسة. تكريما له كفيلسوف وكاتب وكمناضل مؤسس" لشبكة حملة الحقائب" التي حملت باسمه"شبكة جانسون" المعروفة بدعمها للثورة التحريرية الجزائرية ، بادرنا بكتابة هذه المحاولة للتعريف به وبمواقفه وأفكاره لدى القارئ والباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية وهو الذي ساهم بكتاباته في النقد الأدبي والفلسفي وبخاصة كمثقف ملتزم بمناصرته لثورة الشعب الجزائري ليس فقط بالتعريف بها وتقديم الدعم لها بل بالتأثير الايجابي لصالحها داخل الرأي العام الفرنسي والعالمي. كتبنا هذه المحاولة بعد قراءتنا للكتاب الصادر سنة 2015 في فرنسا والجزائر المتناول لموضوع: "حقائب الأستاذ فرنسيس جانْسون" لمؤلفه دومينيك ايمانويل بلانشار Dominique Emmanuel Blanchard' ولم نقصد أن تكون هده المحاولة نقدا أو عرضا لهذا الكتاب، بل دعوة للنقاش حول أفكاره والتزامه النضالي.

1. من مقاومة النازية إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي للجزائر

يسجل دومينك إيمانويل بلانشار بكتابه الموسوم بـ«حقائب الأستاذ جونسون"(Blanchard,2015)، بصمة في تقاليد ثقافة "الاعتراف" والتقدير، التي كرسها المثقف الغربي المعاصر، فقد أصدره إحياءً لذكرى رحيل رجل ارتبط اسمه بثورة التحرير الجزائرية وبالتزامه الفعال بدعم قضيتها، وبإسهاماته الكبيرة أيضا في الحركة الفكرية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. ولعلنا نجد في هذا الاعتراف بشخصية "الأستاذ جونسون" ما يكفي لدفعنا نحن الجزائريين والعرب لإعطاء هدا المفكر والمناضل ما يستحق منا نحن أيضا من "الاعتراف" والتنويه.

فنحن على اقتناع تام بأن "الأستاذ جانسون" كان واحدا من قلائل المثقّفين الفرنسيين الذين استطاعوا، في تلك الفترة، الجمع بين الفكر والفعل ؛ ليس ذلك فحسب، بل تعدى صنيعه إلى نصح غيره بشرعية القضية الجزائرية ؛ حيث جمع من حوله شخصيات فكرية وأدبية، بل وفنية مشهورة ركبت معه، طوعا، مخاطر هذا الالتزام التحرري مع الشعب الجزائري، ومقاومة بكل رصانة ومسؤولية استنكار الرأي العام الفرنسي له.

ولذلك فإن هذه الشخصية الفلسفية والسياسية الفرنسية الفذة تستحق منا، في الحقيقة، أكثر من "الاعتراف" والعرفان، بل توجب على كل مثقف عربي ملتزم واجب التعريف بأفكاره والتنويه بتضحياته الكبيرة، من أجل نصرة إحدى أهم حركات التحرر العربية والعالمية في القرن العشرين، وتعريف أجيال الشباب العربي الحالية بها، قدر الإمكان.

يفتح دومنيك بلانشار في هذا الكتاب المرجعي عن الفيلسوف "فرانسيس جانسون"، بعرض العديد من الحوارات التي عقدها معه لتناول جوانب مختلف حول حقائب هذا الفيلسوف السميكة، الواحدة تلو الأخرى؛ والتي سببت له أحمالها الثقيلة الكثير من المعاناة، في مشواره الفلسفي والنضالي الصاخب بالأفكار والأحداث. أجل، فكلمة "حقيبة" لم تُرَصّ عَرَضًا في عنوان هذا الكتاب، فالكل يعلم، في الجزائر والبلدان المغاربية وفي أوربا على السواء، الدور الكبير الذي قام به الأستاذ جانسُون لصالح ثورة التحرير الجزائرية، من خلال شبكة الدعم الشهيرة التي عرفت باسم "شبكة حملة الحقائب"[1]. ، بل وكثيرا ما ذاع صيتها مقرونا باسمه شخصيا، الذي شكل إحدى مكونات تسميتها، أي "شبكة جانسون".

2. من "اللفظ" إلى "المفهوم" الثوري

وهكذا إذن، يتبين أن مفهومي "شبكة جانسون" و"شبكة حملة الحقائب" ليس مجرد تعبيرين تاريخيين عاديين، بل تعبيرين يحملان (أصبح مفهومين لدى جيل الستينيات والسبعينيات) في طياتهما دلالات رمزية عظيمة الشأن، ؛ فهما يرمزان، تاريخيا وإنسانيا، إلى تلك المجموعة النبيلة من النساء والرجال المالكة لقيم الشجاعة، الأخلاقية والسياسية، الكاملةُ لإدانة مواقف بلدهم (فرنسا) الرافض لحرية الشعوب الأخرى المستعمَرة، ورفض تزكيّة سياستها المزدرية بطموحات هذه الشعوب الشرعيّة إلى الحرية والكرامة الإنسانيتين.

فقد نذر هؤلاء النساء والرجال أنفسهم، بكل تلقائية وطوعية، وسخروها لخدمة "جبهة التحرير الوطني" (اتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا)، ولكل ما من شأنه أن يساعد على تحقيق أهداف الثورة الجزائرية. أما الدلالة الرمزية الأخرى في التعبيرين فتكمن

1- طلاق لفظ الحقائب على تسمية هذه الشبكة اكتسب مدلولا فلسفيا لدى جيل الستينيات والسبعينيات. كان جان بول سارتر يقول لفرانسيس جانسون مازحا:"انت تساعد الثورة الجزائرية بحملك لحقائب جبهة التحرير عبر التراب الفرنسي والحدود المجاورة وانأ احمل الفكر التنويري والتحرري للجبهة "، هذا ما قاله فرانسيس خلال جلسة خاصة جمعته وبعض الأساتذة الأصدقاء (كان من بينهم الأستاذ علي الكنز) خلال زيارته الأخيرة للجزائر بداية سنة 1991.القارئ الحذر لهذا الكتاب (موضوع هذه الورقة يستنتج بسهولة تلميحات جانسون حول سارتر.)

في دلالة لفظ "الحقائب"، وهي بكل بساطة تلك الحقائبُ التي كانت تُنْقَلُ في بطونها، عبر حدود أوروبا، محاصيل الأموال التي يتطوع بها العمال والتجار الجزائريون المغتربون للثورة التحريرية؛ إضافة إلى كل أنواع الوثائق، من جوازات سفر وبطاقات تعريف وغيرها مما يتمّ إصداره من وثائق، خارج أعين الإدارة الرسمية، وإخراجه بكل مهارة وحرفية من قبل بعض مناضلي الشبكة ولعل من أبرزهم وأشهرهم المدعو "أدولفو كامينسكي[1] Adolfo Kaminsky" – فتُسلّم جاهزة للمناضلين الجزائريين، الناشطين في أوروبا أو خارجها، حتى يتمكّنوا من تأدية مهامهم بعيدين عن مخاطر السقوط بين أيْدي الشرطة[2].

1- Sarah Kaminsky ,Adolfo Kaminsky, une vie de faussaire .Ed. Casbah Alger 2014.

في هذا الكتاب تروي سارة ابنة ادلفو كامينسكي، حياة والدها الذي كان عضوا في شبكة جانسون، مكلفا بمهمة تزوير أوراق الهوية وجوازات السفر لصالح المناضلين الجزائريين ليتمكنوا من عبور الحدود.../ولدت سارة في الجزائر العاصمة ببلدية سيدي امحمد سنة 1979 من أم جزائرية وهي تعيش اليوم في فرنسا منذ ان كان عمرها ثلاث سنوات. تعمل حاليا ممثلة وكاتبة سيناريو..

« يقول ادلفو كامينسكي عن كيفية التحاقه بشبكة جانسون لمساعدة اتحادية جبهة التحرير في فرنسا(إن انضمامي إلى شبكة الدعم للجزائريين لم تتم بين عشية وضحاها.... –خلال صيفي 1953 و1954، قمت برحلتين إلى الجزائر مع كوليت، رفيقتي في ذلك العهد، وهي مصورة مثلي، أبوها رجل أعمال من أصل يوناني، كان قد استقر منذ مدة في الجزائر. ...عام 1955، هو ما فتح عينيَّ، وأقلقني بقوة....كنت مؤازرا للجنود الذين أعيد استدعاؤهم، لأنني كنت مقتنعا بشدة بأن فرنسا كانت ترسل أبناءها للمذبحة. وكنت غاضبا أشد الغضب ضد ممثلي اليسار الفرنسي...

فرانسيس جانسون المدعو "الأستاذ"، كنت أعرفه بالاسم. ففي محيطي، في الأوساط المثقفة اليسارية، كل من شغلته القضية الجزائرية كان قد قرأ أو سمع عن الكتاب الذي كتبه بمعية زوجته، "الجزائر الخارجة عن القانون". وأيضا كنت، في أوقات فراغي، من قراء "الأزمنة الحديثة"، المجلة الفلسفية لجان بول سارتر. شخصية فرانسيس كانت مدهشة. فيلسوف وجودي، أسس مذهبه على فكرة مفادها أن التفكير لا يجب أن ينفصل عن الأفعال. .. رأيه: مساعدة الجزائريين على ربح هذه الحرب بأسرع ما يمكن لتجنيب المعسكرين خسائر عبثية في الأرواح. طلب منه جانسون بالتفرغ لطباعة جوازات السفر المزورة للمناضلين الجزائريين وللجنود الفرنسيين الرافضين للجندية في الجزائر" قال له جانسون:

– تتفرغ لها. تقوم بالطباعة. أن تكون قادرا على تلبية الأمور المستعجلة. الكثير من الأوراق، لجنسيات مختلفة. وجواز السفر السويسري الشهير، غير القابل للتزوير..."

راح فرانسيس حينها يعدد بلا توقف حاجات الشبكة للأوراق المزورة... يقول فرانسيس جانسون في لقاءاته المنشورة في كتاب دومينيك–ايمانويل بلانشار المذكور أعلاه ،حقائب الاستاذ جانسون، ص118:«عدد الاوراق التي كان يزورها لنا كامينسكي لصالح الجزائريين كانت تفوق ال15 يوميا بين بطاقة هوية وجواز سفر".

2 - راجع مذكرات عمر بوداود ، مذكرات مناضل : من حزب الشعب الجزائري الى جبهة التحرير الوطني، منشورات القصبة 2007،ص 138.

وحول كيفية استعمال هده الحقائب، يقول "فرانسيس جانسون" في إحدى شهاداته المدونة في متن هذا الكتاب: "..كان هناك أعوان اتصال يحملون المال إلى باريس ليوضع في أماكن معينة، ثم نقوم بجمعه ونقله إلى مكان آخر محدد، لنحسبه بعدما نتحقق مما تحمله الحقائب. وقد كان الأمر عجيبا حقا: إذْ كانت الحقائب تحمل أوراقا نقدية كثيرة كما كان يوجد بداخلها ورقة صغيرة مكتوب فيها المبلغ الإجمالي للمال. كنا نعيد الحساب للتأكد من الحصيلة؛ ودائما ما نجد العدد صحيحا، فقد كان ذلك أمرا خارقا للعادة ! ثم نقوم بترتيب كل هذا المال في شكل حزمات صغيرة، حتى نتمكّن من إيداعه بالبنك". ويتابع قائلا: "حدث لي مرة أنه كان عليّ أن أنقل المال بسويسرا من بنك إلى بنك آخر، بعدما تأكدنا، عملا بالإجراءات الأمنية، من خطورة الوضع. كما وجب عليّ، ذات يوم، نقل حقيبة تحمل ما قيمته مليار فرنك كامل؛ إذ لم يكن الجزائريون يثقون إلا في أنا شخصيا للقيام بمثل هذه العملية"[1].

تميز تضامن "فرانسيس جانسون" مع الثورة الجزائرية؛ وكذلك الحال بالنسبة لأعضاء الشبكة التي أسّسها بالاتفاق مع "عمر بوداود"، المسئول الأول عن جبهة التحرير الوطني بأوروبا، بجوانبَ أخرى هامة أيضا، إضافة إلى جمع المال ونقله عبر الحدود. فقد كان نشاطهم يتعدى ذلك إلى العمل على توعية وتنوير الرأي العام الفرنسي، واستمالته، قدر المستطاع، لصالح القضية الجزائرية، المندرجة، سياسيا وإنسانيا، ضمن إطار الكفاح الشامل ضد الاستعمار ومناهضته. وقد كان هذا النشاط التوعوي والتنويري يقوم، مبدئيا، على جمع المعلومات والأخبار حول الطابع الحقيقي لما كان يُطلق عليه، من قبل الدعاية الكولونيالية، وقتها بـ"أحداث الجزائر"، وعلى التنديد بممارسات الإدارة الاستعمارية، التي كانت تُسيء بشكل فاضح إلى قيم فرنسا نفسها، وتشوه صورتها عبر العالم، جراء التجاوزات المكشوفة بممارسة التعذيب، وكل أشكال الخروقات السافرة لحقوق الإنسان، التي دافعت عنها فرنسا منذ ثورتها المعروفة.

هكذا إذن، راح الأستاذ جانسُون يناضل من أجل تمكين الشعبَ الفرنسي من التعبير عن رأيه، وخلق رِدةَ فعل قوية له، مثلما فعل إزاء الاحتلال الألماني، وبذلك يكون نضال الفيلسوف قد تجاوز العمل المتمثل في حمل الحقائب ونقل المال؛ وهي الحقيقة التي يؤكدها في واقع الأمر المناضل "عمر بوداود"، بقوله: إنه لا ينبغي أن "يأتي وصفُ عمل هذه الشبكة محصورا فقط في عمليات نقل الأموال التي يتكفل بها "حملة الحقائب"، مما قد يُخفي أمورًا أخرى أعمق من ذلك في عمل جانسُون: نعم، حمل الطرود كان

1- dominique Emmanuel Blanchart, les valises du professeur jeanson éd. Casbah, Alger

عملاً نافعا بالنسبة لنا، ولكن إقناع الرأي العام بالظلم المسلّط على الشعب المستعمَر وبعبثيّة هذه الحرب كان هو أيضا أمرًا ضروريا وأساسيا للغاية" [1].

لقد استطاع الأستاذ جانسون الجمع، في شخصيته الإنسانية الواحدة، بين موقفين متميزين واضحين، لكنهما يعودان في حقيقة الأمر إلى مبدأ إنساني واحد؛ موقف الفرنسي المحب لوطنه من جهة وموقف المناضل المتميز الحاسم المناهض للاستعمار من جهة أخرى. أجل، لقد لبى الفيلسوف جانسون نداء الجنرال ديغُول للنهوض بالمقاومة ضد الاحتلال النازي لفرنسا، وبالمنطق نفسه والرؤية الإنسانية ذاتها ندد أيضا بالاستعمار الفرنسي للجزائر، وبكل ما يمسُّ بحريات الإنسان وكرامته؛ وكان بذلك أوّل مثقف فرنسي يعبّر عن هذا الموقف صراحة، رفقةَ زوجته "كوليت – Colette"، بعد إقامتهما القصيرة ببلادنا غداة مجازر 8 ماي 1945 المعروفة. وهو الموقف الذي كان الأستاذ جانسون يزعج به اليسار الرسمي و«التقدمي"، الذي كان يصفه بعبارة اليسار "الوَجِل" أو "المحترم"، حسب هذا التعبير الجميل لمارسيل بيجُي [2].

وبهذا الموقف المبدئي الواضح، يكون الأستاذ جانسون قد جسد فعلا ما ينبغي أن يُتَوَقّع من أي مثقف ملتزم بقضية تَحرُّر ما، من مواقف حاسمة متعالية عن منطق الكيل بالمكيالين؛ فكما سارع الأستاذ جانسون إلى تلبية نداء الجنرال ديغول، كما أشرنا، لتلبية نداء مقاومة النازية، اشهر سيف معارضته لسياسة ديغول ذاته القمعية في الجزائر. وليس في موقفه هذا أية مفارقة، فدفاعه عن القضية الجزائرية ومساندته لاستقلالها لم يكن في واقع الأمر – أو ربما قبل كل شيء – إلا دفاعا عن "شرف فرنسا" التاريخية ذاتها؛ أي عن قيم الحرية والإخاء والمساواة التي مافتئت تدافع عنها، بل وتبشر بضرورتها للإنسانية جمعاء.

أجل، ألمْ يكتب الأستاذ جانسون؛ وهو عائد من الجزائر بعد المجازر المرتكبة بالشرق الجزائري شهر ماي 1945، قائلًا: "(...) ذهبت إلى مدينة "سطيف" فوجدت ترحيبا من قبل نائب الوالي، الذي أخذني للتجوال عبر أرجاء المدينة؛ حيث أوقفني، أثناء تلك الجولة، أمام كومة من الكلس كانت مكدّسة هناك وسط ساحة عمومية، ثم قال لي وهو يمسك بذراعي، وكأنه يعرفني منذ مدة: "انظر.. كان هذا مسرحًا للأحداث" – يقصد مظاهرات 8 ماي 1945 والمواجهات التي وقعت بين قوات القمع والمتظاهرين" ثم واصل يحدثني بفخر: "ألاَ تتذكّر ؟ فقد

1- عمر بوداود،مذكرات مناضل ، المرجع السابق. 2015 P 117

2- Marie Pierre Ulloa, "Francis Jeanson, un intellectuel en dissidence ; de la Résistance à la guerre d'Algérie.

كانوا يريدون أن ينالوا منا.. هؤلاء العرب ! وفي الأخير نحن الذين نلنا منهم نيْلاً ! ألف مقابل واحد، سيدي، نعم... ألف مقابل واحد !". أما هذه الكومة من الكلس فليست سوى بقايا الجثث التي حرقناها إلى أن تفحّمت. (...)". كان الموقف بالنسبة لي حاسما: فقد كان بإمكان هذا الرجل أن يجرّني إلى موقفه ويردني متواطئا معه، إذْ راح يبدي حبه لفرنسا مدافعا عنها، ولكنه لم يكن يخطر بباله طبعا أن حديثه معي، بهذا الشكل المقزِّز، قد أثار سخطي واستفزازي، بل إن حديثه هذا المقزز للنفس !، قد تحول في هذا اليوم بالذات إلى ثورة بداخلي" [1].

3. البداية كانت مجازر 8ماي 1945.

لم تكن مواقف الفيلسوف جانسون الأخرى أقل جرأة ووضوحا عن شعوره هذا، المعبّرُ عنه في مدينة "سطيف"، فقد كتب لاحقا في قضية "التعذيب"، واصفا ممارسته من قبل الفرنسيين بوصمة العار التي تُلطِّخ جبين "فرنسا حقوق الإنسان" مُفَصِّلا في ذلك بقوله: "... لا أفهم اليوم كيف يمكن طرحُ قضية التعذيب من دون طرح القضية الأخرى المتعلقة بالحرب الكولونيالية. إنهما قضيتان متلازمتان لا يمكن الفصل بينهما ؛ وكأني بهم يقولون لو كان بإمكان الحرب الاستعمارية أن تكون في غنى عن التعذيب، لوجدتْ ما يُبرّر وجودها. إلا أني أنا أرى عكس ذلك، فلا يمكن للتعذيب أن يكون إلا أحد الجوانب المؤلمة لهذا الوضع. ولذلك فإن السؤال الجدير بالطرح، فيما أرى، هو ألآتي: لماذا أعلنا الحرب ضد الشعب الجزائري؟ باسم أيّ مصالح؟ لاحظت أنه منذ فتح "صندوق بندورَا" «boîte de pandore»، حافظ الشرور والمآسي، بات المنظور الأخلاقي متغلّبًا على المنظور السياسي، فكل شيء يتمّ كما لو أنه يُراد تبرئة سياسة الحرب الكولونياليّة التي أُشعلت نيرانُها لمدة سنين".

وقبل وفاته بقليل، وفي الوقت الذي كانت فيه قضية التعذيب محلّ نقاشات وجدل وسط الرأي العام، عاد الأستاذ جانسون إلى القضية من جديد، متناولا لها من منظور مختلف عما كان يطرح في هذه النقاشات، حيث كتب يقول:«(...) لاحظت أنه لا يتمّ تجريمُ كل جوانب الحرب ومحمولاتِها، فقد كانت هناك أيضا عمليات الاغتصاب، ومراكز الاعتقال، والمحتشدات مما كان يشكّل مكوّنا من مكوّنات هذه الحرب يُدرج في نفس

1- حول موقف اليسار الفرنسي من الثورة الجزائرية، زيادة على كتاب ماري–بيار الوا راجع مرسيل بيجي، محاكمة شبكة جانسون، دار القصبة الجزائر 2013 وبخاصة تقديمه للكتاب سنة 1961. ترجم هذا الكتاب المرجعي الى اللغة العربية تحت عنوان:فرانسيس جانسون، الفيلسوف المناضل ، وهو في الأصل رسالة دكتوراه دولة حول فكر ونضال فرانسيس جانسون

مرتبة التعذيب. إن الذي يهمّ في نظري هو أنه انتهجنا سياسة استعمارية لا تحتمل ويتعذّر الدفاعُ عنها. كان علينا أن ندرك ذلك منذ وقوع تلك المجازر بسطيف شهر ماي 1945، فالتعذيب لم يظهر في حرب التحرير سنة 1954، بل كان موجودا قبل ذلك أيضا، في الفترة الممتدة بين 1945 و1954 على سبيل المثال. كان من المفروض علينا إذن رفضُ كل ما كان يمتّ بصلة إلى مصالح هذا اللوبي الكولونيالي(المستوطنون)، في تلك الفترة بالذات؛ لو كنّا حقيقة مواطنين جديرين بهذه الكلمة. لكنا رحنا في تلك الفترة نتخلى عن مسؤولياتنا، تاركين مصالح الأمة الحقيقية تتلاشى وتختفي أمام متطلبات جماعة المستوطنين الكبيرة المستقرة بالوسط العاصمي(يقصد مدينة الجزائر)"[1].

4. قناعة المثقف الملتزم

هكذا، يبدو جليا أن الأستاذ جانسون، وانطلاقا من قناعاته كمثقف ملتزم، كان قد رسم – قبل أن يصبح بعد ذلك على رأس الشبكة التي خلّدت اسمَه أثناء ثورة التحرير ، وتحديدا حينما كان يدير سلسلة في منشورات لوساي الشهيرة وزميل سارتر في مجلته المرجعية" الأزمنة الحديثة"–les Temps moderne إستراتيجيته، التي أقلقت عددا كبيرا من أصدقائه بل وحتى من أقاربه في الأوساط الثقافية الفرنسية، التي كانت لا ترضى بسماع تحاليل لا تتماشى والتوجّهات المؤيّدة للهيمنة. وحسب الكاتب مارسيل بيجُي الذي كان صديقه فإنه "إذا كانت جرائد اليسار المثقّف تعبّر عن رأيٍ مخالف لموقف فرنسيس جانسون وشبكته، فلأن هذا الأخير يضعهم أمام عجزهم وفشلهم ذلك مما يقرؤونه في "شبكة جانسون". يرى بيجُي أن وجود شبكة مثل هذه يعدّ إنقاذاً لليسار من العار: "كان جانسون يُخفي عيوب اليسار الفرنسي، ونشاطه كان سياسيا قبل كل شيء. لكنه وجد نفسه يسير في تيار معاكس للوسط الثقافي العام الذي كان –باستثناء جون بول سارتر– يحلل القضية الجزائرية من زاوية سياسية وأخلاقية وليس على ضوء معطيات ثورية".( ) وإذا قال مارسيل بيجي باستثناء "جون بول سارتر" بين معترضتين، فنحن نضيف بدورنا الكاتب والمناضل والناشر "فرانسوا ماسبيرو" الذي كان ينشر العرائض والمناشير والكتب المناهضة لفرنسا الاستعمارية، والأكثر من ذلك كان يقوم بتهريب الجزائريين والفرنسيين الرافضين لحمل السلاح وعبورهم عبر الحدود الفرنسية – البلجيكية، السويسرية والألمانية[2].

1- انظر أيضا كتاب فرانسيس جانسون بالاشتراك مع زوجته كوليت:Francis Jeanson et Collète, L'Algérie hors la loi, le Seuil Paris 1955.

2- نُشر بجريد " لومند" يوم 28 ماي 2001 ؛ جمعه وأعدّه أنتوان سبير ،ذكره دومنيك إيمانويل بلانشار في هذا الكتاب.

لقد جسد الأستاذ فرانسيس جانسون فعلا شخصيته الفلسفية الملتزمة في الواقع، حيث عرف كيف يعطي معنى لحياته ولمساره النضالي، الذي ترجمه في مواقف عملية في الميدان، تماما كما عبر عن ذلك قائلا:«لكن لما أتكلّم عن ضرورة إعطاء معنى، يتبيّن لي أنه ليس في مقدوري أن أعطي معنى معيّن بمفردي، لا أستطيع أنا نفسي التأكد من المعنى الذي أريد إعطاءه إلا بمقابلته بالمعاني الأخرى". فليس بإمكان أحد، كما يقول دومينك بلانشار: أن ينكر ما قدمته كتاباتُ فرنسيس جانسون من أجل إحياء الضمير، ليس فقط على مستوى الرأي العام الفرنسي وإنما أيضا على مستوى الرأي العام الدولي. فاسم هذا المناضل الكبير –كما يضيف بلانشار وهومحق في ذلك– قد دخل الآن التاريخ، وهو متداولٌ اليوم، إضافة إلى ميدان التاريخ، في ميادين أخرى منها، كما يقول البعض ميادين سوسيولوجية عديدة، وبخاصة منها تلك الميادين السوسيولوجية التي تُتناول فيها مواضيع مرتبطة بالجزائر، وكذلك المفاهيم السياسية ذات الصلة بذلك، كمفهوم "العنف الثوري"، الذي كان المثقف والأديب اليساري " الكبير" ألبير كامو، والمولود في الجزائر، يرفضه[1].

5. المثقّفون الفرنسيون يفيقون من غفلتهم: جانسون، سارتر وصاحب رواية "الرجل االمتمرد – .L'homme révolté"

يسمح التناول السوسيولوجي لظروف تلك الفترة التاريخية بالتحقق انه بفضل كتابات الأستاذ جانسون والعمل النضالي لشبكته، وبفضل المحاكمة أيضا – محاكمة الشبكة بعد تفكيكها، والتي بدأت يوم 5 سبتمبر 1960 بالمحكمة النظامية للقوات المسلحة بباريس – بدأ المثقّفون الفرنسيون يفيقون من غفلتهم، ومثلما عبّرت عنه بوضوح الباحثة ماري بيير أولوا Marie-Pierre Ulloa فإن "محاكمة جانسون قد أدّت إلى تجنيد الطبقة المثقّفة وأيضا اليسار أثناء سير جلسات المحاكمة، كما يجسّد "بيان الـ 121" المقاومةَ الفرنسية ضد حرب الجزائر، وقد كان ذلك عملاً تضامنيا مع شبكة جانسون. فقد أعلن الموقعون على بيان المئةُ والواحدُ والعشرون ما يلي: "نحترم موقفَ رفضِ حمل السلاح ضدّ الشعب الجزائري معتبرينه موقفا مُبَرَّرا؛ كما نحترم موقفَ الفرنسيين الذين يرون أنه من واجبهم تقديمُ العون والحماية للجزائريين المضطهدين باسم الشعب الفرنسي، ونعتبر ذلك موقفا مُبَرَّرا أيضا[2].

1-.D.E.B op.cité-راجع les Temps modernes العدد 79،سنة 1952.المقال الذي انتقد فيه فرانسيس جانسون بشدة مواقف البير كامو من الثورة الجزائرية.

2- نفس المرجع (D.E.B op.cité). عنوان الفصل:et si on parlait de camus!" pp.45-43

لهذا كله يمكن القول: إنه ليس من المبالغة في شيء اعتبار ما ذهب إليه الأستاذ جانسون في مواقفه بخصوص القضية الجزائرية أبعد ربما مما ذهب إليه "جان بول سارتر"، الذي كان هو نفسه، حسبما يشير مؤلف هذا الكتاب، من أطلق تسمية "حملة الحقائب" على شبكة جانسون، وذلك بناء على أقوال الأستاذ جانسون نفسه. ويتضمن كتاب دومينيك–إيمانويل بلانشار في طياته فصولا مليئة بالشواهد المعبرة عما كان يفرق ويجمع في الآن نفسه، بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين المؤثرتين بقوة في عصرهما؛ الأمر الذي سمح لهما بإثراء نقاش فكريّ لم يُعرف له مثيلٌ. نقاش لم تقتصر فعالياته عليهما – الفيلسوفان جانسون وسارتر – بل شاركتهما فيه، بشكل مباشر أو غير مباشر، شخصيةٌ أخرى "كبيرة "هي ألبير كامو. فهذه الشخصية الفكرية والأدبية المؤثرة قد غذى دورها – سواء الذي لعبته أو ذلك الذي كنا نتمنى أن تلعبه ولم تلعبه – هذه النقاشات، ولكنه أذكى أيضا العديد من الخلافات، وذلك حتى بعد وفاتها المبكرة. فقد روى الأستاذ جانسون أن سارتر أسر له "أنه كان، ولمدة عامين أو ثلاث، في علاقة طيّبة مع ألبير كامو، غير أنه لم يكن بإمكاننا الذهاب بعيدا في هذه العلاقة على المستوى الفكري، لأنه كان يرتعب بسرعة؛ وفي الحقيقة كان له جانب يميّزه كأحد أفراد مستوطني مدينة الجزائر العاصمة السوقية (أي المبتذلة)...فقد كان ألبير كامو كثير الغدر، كثير الغرابة. وربما كان الأخير من اتّصف معه بالصداقة الحقّة"[1].

وفي نفس السياق يقدم بلانشار رواية للأستاذ جانسون نفسه عن ألبير كامو، فيقول، عن فكرة جارحة سبق لسارتر أن نقد بها صاحب رواية "الرجل المتمرد – L'homme révolté"، وأثار استياؤه بها بعد نشرها: ..“ "بصفة عامة فإن كامو يتفرد في استعمال أسماء فلاسفة – سواء تعلق الأمر بهيجل أو نيتشه أو ماركس– دون أن يقرأ إنتاجهم الفكري أو أنه يختصر معرفته بهم في طرق ثانوية ولا يتناولهم إلا سطحيا، وهو لذلك يستغلهم بشكل سيء. فلا أحد طلب منه أن يلعب دور الفيلسوف، وكان بإمكانه أن

1-Propos recueillis par Michel Contat et publiés dans Le Nouvel Observateur juillet 7 juin et 30 .juin,23
Interview de Francis Jeanson, “Il est temps que l’Algérie se mette à écrire son histoire pour ses enfants”, Le Soir d’Alger, 19 juillet 1991.. الكثير من المثقفين في مشرقنا العربي مطلعون على البير كامو الروائي وصاحب جائزة نوبل، غير أنهم يجهلون مواقفه تجاه الثورة الجزائرية. كان كامو مع عقلنة الاستعمار ولم يكن أبدا مع استقلال الجزائر مثلما كان جانسون وسارتر وماسبيرو وغيرهم.

يقول لنا ما كان يفكّر فيه دون أن يتخفى وراء هذه القامات الكبيرة[1]" . علينا ان نشير انه بالرغم من أن ألبير كامو، ولد في الجزائر وعاش فيها واحتك بسكانها، الجزائريين منهم والمستوطنين، إلا أنه لا ينتمي إلى "جيل الجزائر"[2]، بالمعنى الفلسفي الذي حملته الكلمة الخالدة، التي تركها لنا فرانسوا ماسبيروفي ذلك المقال الشهير الذي حررته مجموعة من المثقفين الفرنسيين ونشرته، برعاية منشورات ماسبيرو نفسه، في العدد الأول من مجلة Partisans الصادر سنة 1961.

6.شهادات نادرة

أخيرا، وقبل أن نختم هذا المقال ارتأت أن أُلحقَ متنه بنص الشهادات النادرة الآتية: فقد سبق أن طلبنا من الأستاذ جانسون تشريفنا بكتابة مقدمة خاصة بالطبعة الجزائرية المترجمة لكتاب الباحثة الشابة "ماري بيير أولوا"، قبل صدوره باللغتين العربية والفرنسية في الجزائر. ولكن، وبما أنه كان طريح فراش المرض عاجزا، كما أخبرنا هو نفسه هاتفيا، حتى عن حمل القلم، لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة كتابة، مصرا مع ذلك أن يملي لأحد أصدقائه، حبا للجزائر، هذه العبارات المؤثرة، التي نتشرف نحن بدورنا بتقديمها للقارئ الجزائري والعربي عموما في الفقرات الآتية؛ تكريما وعرفانًا منا له على جميل صنعه وعظيم تضحيته من أجل استقلال الجزائر وبعدها مناصرة نضال الشعب الفلسطيني.

«لقد بات كبرُ السنِّ وبعضُ المشاكل الصحيّة تحدُّ بشكل كبير من قدراتي في التعبير (...). إن ما أتمناه هنا على وجه التحديد هو أن يفهم القارئُ، بعد اطلاعه على هذا الكتاب، أن الهمَّ الكبير الذي كان لدينا هو أن نبيِّنَ للناس أن كولون الجزائر لم يكونوا هم فرنسا، وأن الجسور القائمة بين الشعب الفرنسي والشعب الجزائري، الذي أصبح مستقلاً، لا يمكن تهديمها. بل، إن كل شيء يحملني اليوم على القول أن عملنا لم يذهب سدى، مهما كانت الصعاب سواء من هذا الطرف أو من ذاك، فلا شيء يمنعنا من التخطيط معًا لمستقبل إنسانيّ

1- يقول كامينسكي في مذكراته "سمعت أيضا أنه(جون بول سارتر) كان في خصومة مع ألبير كامو لأنه انتقد كتابه. شخصيا، لم يكن لدي أية ملاحظة حول النوعية الأدبية لكتاب كامو، إلا أنني أنا أيضا تخاصمت معه، قبل ذلك بسنوات، أثناء محادثة نارية حول الجزائر حيث لمته على فتوره..."هذا ما قاله كامينسكي لأبنته سارة .راجع الكتاب سابق الذكر.

2- " أنا من جيل الجزائر" جملة كان يرددها دوما الكاتب والناشر المناضل فرانسوا ماسبيرو ليصف بها كل الأحرار الفرنسيين الذين ساندوا الثورة الجزائرية وغادروا الحزب الشيوعي الفرنسي آنذاك بسبب موقفه المعارض لاستقلال الجزائر وللممارسات الستالينية في بلدان اوربا الشرقية.

مشرق.. تِلْكُمْ هي أمنيتي.. وتِلْكُمْ هي قناعتي، ولا أريد أن تفوتني هذه الفرصة التي أُتيحت لي لأزفّ تحياتي الحارة إلى إخواني الجزائريين وأخواتي الجزائريات".

وبعد ساعات قليلة من رحيله يكلّمنا نجله "أوليفيي Olivier" هاتفيا من فرنسا، ليطلب منا نقل خبر وفاته للأستاذين "عليّ هارون" وعُمر بوداود – الأول كان مسؤول الإعلام في فبرالية جبهة التحرير في فرنسا والثاني رئيسها أيام الثورة –، غير أننا لم نتمكّن من ذلك، فقد كان الأول متواجدا خارج الجزائر وبعيدا عن فرنسا، بينما كان الثاني متواجدا بألمانيا من أجل العلاج. تأسفنا كثيرا لهذا الأمر، فقد كانت سعادة الأستاذ جانسون كبيرة حينما حضر هذان الرجلان جنازة "روبير دافيزي [1]، وهي السعادة التي يكون قد تمناها دون شك قبل وفاته لحضورهما جنازته أيضا. توفيّ جانسون يوم أول أوت 2009، ونبعث الجزائر ممثلا عنها (كاتب أداري بسيط) من القنصلية الجزائرية بفرنسا لحضور مراسيم الجنازة. وفي 6 نوفمبر 2009، أي شهرين من بعد، يتّصل بنا نجله [2] من جديد، ليعلمنا بالخبر الحزين، الذي كاد أن يفقده عقله، قائلا: "بالأمس قاموا بحرق منزل والدي بمنطقة كلاَوي.. يا لها من كارثة ! كل الأرشيف أصبح رمادا تذروه الرياح !"، وبعدها علمنا، عن طريق أحد أصدقائه، أن جانسون كان قبل وفاته يخطط لنشر أرشيفه عن الثورة الجزائرية وعن مقاومة ونضال شبكة "حملة الحقائب" من اجل حرية الشعب الجزائري ويحضر لذلك قبل رحيله.

1- يبقي الأب دفيزي أحد أكبر الأسماء الفرنسية (من المسيحيين المناضلين رفقة اندري مندوز وروبير بارة) في الكفاح من أجل تحرير الشعب الجزائري. كان يعدّ من بين أنشط أعضاء شبكة جانسون .يوم تأسيس الشبكة كان من بين الخمسة رجال الذين حضروا الاجتماع التأسيسي للشبكة كان الرجل الثاني بعد الراحلة هيلين كوينا كاتبة فرانسيس جانسون في الشبكة. بعد استقلال الجزائر، كرس روبير دافزي جلّ وقته من أجل الحصول على العفو لصالح المناضلين المناهضين للاستعمار: فرنسيس جانسون وآخرون –وهو العفو الذي لم يصدر إلا في نهاية سنة 1966. وتجدر الاشارة الى أن مسالة العفو عن المساندين للثورة الجزائرية كانت من بين المطالب الأولى والنقاط الحاسمة في مفاوضات ايفيان. لهذا الأب العديد من المؤلّفات من بينها: "Le Front" (1959) الذي كان عبارة عن مختارات لشهادات جزائرية؛ "Le Temps de la justice".لمن اراد التوسع أكثر عن هؤلاء المناضلين الأحرار، يستحسن الرجوع لكتابات احمد طالب الإبراهيمي، عمر بوداود وعلي هارون (جميعها نقلت الى اللغة العربية ونشرت في الجزائر).

2- تعرفت على اوليفي جانسون في شهر نوفمبر 2009 عندما قدمت له الدعوة لحضور الصالون الدولي للكتاب والمشاركة في ندوة تكريمية لوالده فرانسيس بحضور علي هارون ودومينيك –ايمانويل بلانشار مؤلف هذا الكتاب موضوع الدراسة.

خلاصة

وختاما، يجدر بنا التذكير بما كتبناه سنة 2013 في تقدمينا للقاموس المترجم إلى العربية بعنوان "أصدقاء الخاوَة"(أي الإخوة) للجامعي والناشر رشيد خطّاب [1] الذي جمع فيه شخصيات وكل شبكات الدعم العالمي لصالح الكفاح من أجل تحرير الجزائر ما يلي:

«رحل الصحفي والكاتب ربير بارة وفرنسيس جانسون ورحل أندري ماندوز، وبيير فيدال ناكي المناضل والمؤرخ الملتزم صديق الثورتين الجزائرية والفلسطينية، ورحلت المناضلة هلين كوينا، ورحل اليوناني بابلو(ميشال رابتيس رئيس الأممية الرابعة، صديق احمد بن بلة والمؤرخ والمناضل محمد حربي والصادق هجرس). ونتمنى العمر المديد للكاتب والمترجم والناشر فرانسوا ماسبيرو[2] الذي يصارع الموت (مثله مثل الجزائري بولوني المنبت هنري علاّق) والعم روني فوتيي الذي صوّر الثورة الجزائرية قبل أن يؤرّخ لها الجامعيون والمؤرّخون، كما رحل الأب روبير دافيزي، الذي أزعج الكنيسة وفرنسا الرسمية، بمساندته للثورة الجزائرية.

1- رشيد خطاب، أصدقاء" الخاوة"، قاموس بيوغرافي: الدعم العالمي لثورة التحرير الوطنية الجزائرية 560ص. ترجمة وتقديم مصطفى ماضي،دار خطاب، الجزائر2013.

2- كتبنا هذه الكلمات قبل رحيل فرانسوا ماسبيرو(11.04.2015). والده هنري ماسبيرو العالم المختص في تاريخ الحضارة الصينية(1883–1945) وجده غاستون ماسبيرو(1846–1916). الكل يسمع اليوم، بل ويعرف ساحة ماسبيرو بالقاهرة، غير ان القليل منّا يعرف أنها سميت باسم جده المختص في تاريخ وحضارة مصر الفرعونية والذي قام بجهود كبيرة لمواجهة سرقة الآثار المصرية، بل وتوصل ونجح في إعادة آلاف القطع الأثرية المسروقة . ولأنه من عائلة مثقفة وعريقة دفع السلطات الحاكمة آنذاك الى سن القانون الصادر سنة 1912 والقاضي بمنع الأشخاص من التنقيب عن الآثار ليقتصر فقط على البعثات العلمية ليلغي بذلك قانونا سابقا كان يعطي الحق للمنقبين الاحتفاظ بنصف القطع الأثرية التي يجدونها.كما يمنع القانون منح تأشيرة الخروج من مصر إلا بعد التأكد من ترك موقع التنقيب في حالة جيدة. لقد شن ماسبيرو الجد حربا على تجار الآثار ومهربيها وتمكن من اعتقال أحد أشهر العائلات المصرية التي تخصصت وقتها في تجارة الآثار وسرقتها، وهي عائلة عبد الرسول المعروفة في القاهرة.

اعترافا وعرفانا لعمله العلمي ولما قدمه لمصر من خدمات للمحافظة على آثارها وهويتها، كرّمه الرئيس جمال عبد الناصر سنة 1960 بتسمية الساحة التي يقع فيها مبنى الإذاعة والتلفزيون المصري باسمه. رحم الله جمال عبد الناصر الذي اعترف بجميل جد فرانسوا في مصر ،وغفر الله لنا في الجزائر لنسياننا لنضال فرانسوا ماسبيرو من اجل استقلال الجزائر. نحن "جيل فرانسوا ماسبيرو " الذي شرب من منابع ومصادر منشورات ،لا نطمح لتسمية" ساحة" أو "ميدان" باسمه ،بل فقط لمؤسسة ثقافية او تربوية أو حتى طريق ليس بالعريض او الطويل، عرفانا منّا لنضاله من اجل استقلال وطننا الجزائر ومناصرته لثورتنا في فلسطين.

كلمة معبّرة قالها لنا يوما الأستاذ علي هارون: "الجزائر نالت استقلالها سنة 1962، واحتفل الشعبُ الجزائري باستقلاله كما يجب، بينما بقي فرانسيس جانسُون ملاحقًا ومطاردًا من قبل الحكومة الفرنسية بتهمة خيانة فرنسا". ونضيف بدورنا كلمة أخرى لا بد منها لحظة كتابة هذا النّص: رحل الفيلسوف المناضل "فرانسيس جانسون" سنة 2009 ورحل فرانسوا ماسبيروسنة 2015 ورحل المؤرخ والمناضل بيار فيدال ناكي ورحل كل هؤلاء الأحرار الذين ناضلوا داخل "شبكة حملة الحقائب" من اجل استقلال الجزائر وهم الذين ناضلوا من اجل استقلال فلسطين بعد انتصار ثورتنا في الجزائر وبقينا اليوم نتفرج وغير مبالين ولم نفكر نحن لحظة في تكريمهم ولو بتسمية بعض مؤسساتنا أو ساحاتنا أو حتى أزقتنا الصغيرة بأسمائهم...فما أحوجنا لناصر يرد الجميل لهؤلاء الحقيين (les justes) مثلما فعل الراحل جمال عبد الناصر حينما كرّم غاستون ماسبيرو جد فرانسوا ماسبيروبتسمية اكبر ساحة باسمه في القاهرة عرفانا لنضاله من اجل المحافظة على الآثار المصرية ومنع تهريبها خارج مصر. رحل الذين فعلوا وبقي الذين ينفعلون ويتفرجون.

المراجع

1. Les Temps modernes, no 79, 1952.
2. Blanchard Dominique-Emmanuel, 2015. Les Valises du Professeur Jeanson, Casbah éditions, Alger.
3. Jeanson Francis et Collète, 1955. L'Algérie hors la loi, le Seuil Paris.
4. Kaminsky Sarah, Kaminsky Adolfo, 2014. Une vie de faussaire .Éd. Casbah Alger.
5. Le Nouvel Observateur, éditions : 3juin, 30 juin et 7 juillet.
6. Le Soir d'Alger, 19 juillet 1991.
7. Ulloa Marie Pierre, Francis Jeanson, 2013. Un intellectuel en dissidence, de la Résistance à la guerre d'Algérie, éditions Casbah, Alger.